# المرأة عند جبرا ابراهيم جبرا
# (البحث عن وليد مسعود، السفينة ) انموذجا

الدكتور عدنان طهماسبي

استاذ مساعد في كلية الاداب و العلوم الانسانية بجامعة طهران

نهاد بازگير

طالبة في مرحلة الدكتوراة – قسم اللغة العربية

**تلخيص**:

يهدف البحث إلى تصوير دور المرأة عند القاص جبرا ابراهيم جبرا و الخوض في تفاصيل الشخصيات النسوية و دورها في توجيه مجمل الاحداث و علاقاتها مع شخوص الرواية سلبا و ايجابا و عرض تشابك الزمان و المكان و الحركة الزمكانية في الروايتين (السفينة، البحث عن وليد مسعود)، و من ثم عرض التناقضات، الازمات النفسية، العودة إلى الذات،

الوطن، الهروب، المنفى ، الانتحار، الغربة، اليأس، القلق... وتأكيد الدور الايجابي للمرأة في مؤازرة الرجل في كفاحه الدائم في معترك الحياة و تحدياته المصيرية في النضال و الصمود في وجه المحتل الغاشم و من ثم تحليل لشخصية البطل (من الجانب النسوي) بمخطط توضيحي لبيان علاقاتها مع بقية الشخصيات في نهاية المقال...

**كلمات مفتاحية:**

المرأة، جبرا ابراهيم جبرا، السفينة، البحث عن وليد مسعود.

**خلفية البحث:**

لابد من الاشارة الى ان البحث الموسوم (المرأة عند جبرا ابراهيم جبرا في الروايتين – البحث عن وليد مسعود و السفينة- انموذجا)هو بحث غير مسبوق من حيث المضمون حيث لم يتم دراسة المرأة في هاتين الروايتين و بشكل متعمق ولم تتطرق تحديدا الى قضية المرأة من خلالهما لكن تجدر الاشارة الى انه كتبت كثير من الدراسات حول الكاتب، تناولت العديد من جوانب حياته القصصية و نتاجه الادبي لما لهذا القاص من مكانه كبيرة بين الروائيين العرب.

**المقدّمة**

المرأة هي الشطر الثاني في المجتمع كما يقولون ولأمر يعلمه الله كانت الوصية بها خيرًا، أمّاً وأختًا وبنتًا وزوجًا.. وبلغ الأمر مداه عندما أكد الرسول صلى الله عليه و اله وسلم ذلك مثنى وثلاث. لأجل ذلك وجب الاعتناء بها، بل وجب ذلك عليها في حق نفسها والمرأة في المجتمع الإسلامي الأول، وفقت تمام التوفيق لمعرفة رسالة ربها ودورها في الحياة وستبقى النموذج التي لا يمكن منافستها بنيّة التفوق عليها، مهما بلغت الحياة أي تطور ينشده بنو الإنسان.

حقيقة ان المرأة العربية في الغالب هي المرأة المقهورة، السّلبية، المتلقّية، الخاضعة للهيمنة الذّكوريّة، فهي بالمعتاد تابعة ومتلقّية ومقموعة، القمع يتراوح بين العادات والتّقاليد، ظروف المجتمع وأنماطه في التّعامل ولم تخرج المرأة عن هذه الصّورة إلاّ في حالات محدّدة ولعلّ الرّواية العربيّة الحديثة لعبت دورًا في إظهار المرأة العربيّة في صورة مغايرة، فقد أصبحت المرأة شريكة للرّجل في تحمّل المسؤوليّة، امرأة إنسانة وليس سقط متاع، لم تعد مجرّد جسد ينظر إليه بشهوة ورغبة بل أصبحت المناضلة والأمّ والشّريكة

يبقى السّؤال هو: هل هذا التّغيير بالنّظرة للمرأة في روايات الكُتّاب العرب المعاصرة، انعكس فعليًّا على السّلوك الشّخصيّ للكاتب وهل ترك تأثيره على المجتمع وبدأ يلعب دورًا في التّغيير أم بقي مجرّد حروف مرسومة بالحبر؟

لقد كان اختيارنا لموضوع: "المرأة في روايتي جبرا ابراهيم جبرا في (السفينة و البحث عن وليد مسعود ) انموذجا" للوقوف على صورة المرأة العربية العراقية و تحديد مكانتها ودورها وهي تقف إلى جنب الرجل تشاركه رحلة الكفاح وتؤازره في معركة الحياة. اذ "استطاع جبرا من خلال السفينة أن يدين الواقع العاجز المتمثل في طبقة مثقفيه البرجوازيين وجعل من ثقافة هذه النخبة ثقافة عاجزة لا تزال تبحر في وهمها وزيفها"( فرنجية، ٦٥) وجعل من السفينة "صرخة من أجل الوعي، وعي العجز، والخروج من هذا العجز.. صرخة تدين الانهزامية والاستسلام للذكريات ودعوة لتحمل المسؤولية من أجل المواجهة والتجاوز"(المصدر نفسه،٦٥).

في وسط تراكم كتابة الرواية خاصة عن فلسطين نتسائل هل تقدم روايتا "السفينة و البحث عن وليد مسعود" شيئا جديدا و لماذا جبرا تحديدا من بين بقية الروائيين؟ ....

هذا هو السؤال الاساسي الذي تثيره هذه المقالة و تحاول ان تجيب عليه.

## المرأة في روايتي جبرا ابراهيم جبرا[١]

## السفينة و البحث عن وليد مسعود

جبرا ابراهيم جبراً شأنه شأن غيره من كتاب الرواية، اتكأ على المشاهد الوصفية المكانية في التعبير عن عالمه الذاتي مثلما عبر بها عن عالم الشخصيات وقد طرح بتعابيره تلك القضايا والمضامين البارزة في روايته سواء بطريقة مباشرة صريحة مثلما نلاحظه في رواية "صيادون في شارع ضيق" أو "البحث عن وليد لسعود"، أو بطريقة إيمائية إيحائية رامزة مثلما نجده في روايته "الغرف الأخرى". وللوصول إلى هذا الهدف سعينا إلى تتبع موافق جبرا عن الأمكنة في رواياته وفق ظهورها بادئاً برواية "صراخ في يد طويل"، هي الرواية الأولى، منتهياً برواية "يوميات سراب عفان"، وهي روايته الأخيرة، أما صفوة القول حول جبرا قاصاً، فهو ان قصص جبرا القصيرة دون رواياته وشعره من حيث جودة السرد واتقان البناء الفني، فهي تسرف في الطول على حساب التركيز في الزمن وتعتمد الحوار على ان جبرا يمتلك ناصية اللغة القصصية التي يقترب فيها عن لغة الحديث اليومي والكلمات التي تثير خيال القارئ، ولكن هذا لا ينفي وقوعه في إشكال لغوي هو الخلط بين لغة الشعر بما يتميز به من رمزية مثلاً ولغة القصة، مما أفسد عليه بناء بعض القصص ولا سيما قصته الأخيرة "الرجل الذي كان يعشق الموسيقى."

تشكل روايتا السفينة والبحث عن وليد مسعود تجديدا على الصعيد الفني لأن الحدث الاساسي ينبع من علاقات الابطال و تناقضاتهم و من توتر علاقاتهم بالآخر و المحيط و العودة الى الذات و الوطن و الحركة في الروايتين احيانا تتجاوز بهم اراداتهم و اهوائهم، شأن كثير من الروايات، الامر الذي ينتهي بمجموعة من الوحدات القصصية بعدد الشخصيات التي تتحرك معا و تتكامل من لوحة الى لوحة طول الايام التي يمضونها في السفينة او تحرك البحث عن وليد مسعود ناهيك عن الغربة و التناقض و الرفض و العودة و الحنين و حب الثأر و الارض تتموج بها تباشير حب الماضي و الحال و المستقبل.(للمزيد راجع عبدالقادر) (( جسدت السفينة وهي مكان تجمع

---

[١] ولد في عام ١٩١٩م في بيت لحم في عهد الانتداب البريطاني، درس جبرا في مدرسة طائفة السريان في بيت لحم خلال المرحلة الابتدائية ثم في مدرسة بيت لحم الوطنية ، ثم المدرسة الرشيدية في القدس والتي أتاحت له التعرف على أساتذة كبار أمثال : إبراهيم طوقان ، إسحاق موسى الحسيني ، عبد الكريم الكرمي ، محمد خورشيد . ثم التحق بالكلية العربية في القدس ، وتابع دراسته في بريطانيا وحصل منها على الماجستير في النقد الأدبي عام ١٩٤٨م،مؤلفاته: صراخ في ليل طويل ، صيادون في شارع ضيق ، **السفينة** ،**البحث عن وليد مسعود** ، عالم بلا خرائط . بالاشتراك مع عبد الرحمن منيف . الغرف الأخرى ، يوميات سراب عفان ، شارع الأميرات ، عرق وبدايات من حرف الياء . مجموعة قصصية . البئر الأولى . سيرة ذاتية .،وله ترجمات ودراسات كثيرة، توفي في عام ١٩٩٤م ودفن في بغداد.( لؤلؤة، عبدالواحد،١٧٠)،."(صحيفة الرياض): http://www.alriyadh.com/Contents/29-09-2003/Mainpage/Thkafa_8055.php

شخصيات الرواية ، نقطة الانطلاق نحو المجهول، نحو اللاشيء، انها طريق الهرب من واقع ما عادت تطيقه الشخصيات)).( يعقوب، ٢٥٦).

تتميز لغة جبرا إبراهيم جبرا من لغة غيره من الروائيين بتنّوعها وغناها فهو((يوزّع ثروته اللغوية على شخصياته. لغة الثقافة للمثقّفين، بتجريداتها وصلابتها الصارمة.... ولغة الشعر للشعراء، برقّتها وشفافيتها. أما اللغة البسيطة، فهي للناس البسطاء، وهكذا تكون اللغة وسيلة للوصول إلى الشخصية، سواء كانت لغة سرد أو حوار))( وادي، ١٨٢).

يستعمل جبرا أسلوب الاسترجاع، حين يعود إلى شخصيات ظهرت بإيجاز في بداية الرواية أو تمت الإشارة إليها ولكن المجال لم يتسع لعرض خلفيتها أو تقديمها، فيلجأ الكاتب إلى أسلوب المذكّرات أو الاعترافات لإضاءة جوانب هامة من حياة الشخصية ومثل هذا النوع من الاسترجاع نجده في الروايات التي تعتمد أسلوب الاعترافات أو المذّكرات، سواء بصورة جزئية أو كلية وينطلق هذا النوع من الاسترجاع من رؤية الشخصية لذاتها مما يضفي عليها طابعاً خاصاً يتسم بالصدق والواقعية ومثل ذلك نجده في مذكرات"وصال رؤوف" وهي تكشف أوراقها وتفصح عن عواطفها المتدّفقة وخلفيتها الفكرية والاجتماعية وطبيعة تكوينها النفسي وعلاقتها الحميمة بوليد مسعود الذي أحبته بشغف فسمّاها"شهد" وعلّمها عشق الروح والجسد.(جبرا،البحث عن وليد مسعود،٢٢١).

مما تقدم يتضح الدور الهام الذي يقوم به"الاسترجاع" على اختلاف أنواعه في بناء الشخصية الروائية وإضاءة جوانب كثيرة من ماضيها وعالمها الداخلي وأبعادها النفسية والاجتماعية... وإذا كان"الاسترجاع" يعود بحركة السرد إلى الوراء، فإنّ "الاستشراف" أو "الاستباق" كما تسميه"سيزا قاسم يستبق الحاضر السردي للنص الروائي ليطال المستقبل. "(للمزيد راجع قاسم، ٤٣ ).

فإن جبرا حين يدقق في ملامح المرأة فيتناولها بتفصيل مسهب ويركز على مفاتن الجسد ومواطن الإثارة فيه فإنه لا يفعل ذلك إلا ليميط اللثام عن طبيعة شخصية (لمى أو مريم) المتفجرة أنوثة ورغبة وهذا ما نقف عليه في وصفه لمريم الصفار"البحث عن وليد مسعود":

((كانت جميلة، مثيرة، بقميص نيلي، وتنّورة نيلية قصيرة، تكشف عن نصف ...، وجوارب نيلية،، تؤكد كلّها على نضارة بشرتها وطول ساقيها))( جبرا،البحث عن وليد مسعود، ١٣٣)... ((كانت في جلستها، والساق على الساق، شديدة الإغراء. كانت الجوارب الزرقاء الطويلة التي تشف عن ...، تجتذب عينيّ، رغماً عني، وتثير فيَّ رغبة أكبحها ما استطعت))(المصدر نفسه، ١٣٦ ) وهذا ما نقع عليه أيضاً في وصفه لـ (لمى عبد الغني) وهي ترقص على ظهر السفينة.

فها هي ذي"لمى عبد الغني" على سبيل المثال تتحدّث في"السفينة" عن توما الأكويني وطريقته في المنطق(جبرا، السفينة ، ٨٩ ) وتتحدّث عن"برغسون" وتستعيد مع عصام السلمان ذكرياتهما وأحاديثهما عن"وايتهيد" وابن رشد... وعن مسرحيات ومتاحف... كل ذلك بلغة علميّة صلبة مجردة(المصدر نفسه: ١٦٢ ).

وتلك"مريم الصفّار" تسجّل في مذكرّاتها بعض الأحاديث التي دارت في إحدى السهرات الخاصة بينها وبين أصدقائها المثّقفين البرجوازيين بلغة برجوازية فيها من التأنق والفكر والثقافة بقدر ما فيها من السفسطة والاسترسال والتصنّع الحضاري(جبرا،البحث عن وليد مسعود ، ١٧٧).

وتتحدّث"وصال رؤوف" الشاعرة"، كما كان يسمّيها"وليد مسعود" عن تعلّقها الحميمي بوليد حبيبها الذي شكّل غيابه لغزاً محيّراً لدى أصدقائه جميعهم: ((قتلوك وجندلوك، وتمنّيت لو كنت ساعتئذٍ ملتفّة حول خصرك، وصدرك لأقيك من نفاذ الرصاص، وأقيك من الرضوض، إذ رحت تتدحرج من صخرة إلى صخرة، لأقي وجهك من التشوّه...))( جبرا،البحث عن وليد مسعود، ٢٤٠).

**١-موقف المرأة من القضية الفلسطينية**

قد يصعب ان نتناول الحياة الفكرية للشعب الفلسطيني دون ان نضع بعين الاعتبار تجربته المرة بعد عام ١٩٤٨م و نكسة حزيران ١٩٦٧م، اذ عاش في ارضه المحتلة و تميز فكره و ابداعه بلون المواجهه للعدو الصهيوني و بمحاولات من الاخير للقمع و التذويب و جانب آخر عاش في المخيمات له حنين الرجوع و جانب ثالث غادر بلاده متجها إلى العالم الخارجي ليعيش سلوك النخبة حيث ظهر منهم اكاديميون و كتاب و ادباء. ان احداث ١٩٤٨ و ظروفها المعقدة كتبت على الفلسطينيين حياة مرة عاشوها في ظل نظام تابع و مهيمن و جاثم على حياتهم و ارضهم و وطنهم لكن منذ الستينيات و تحديدا نكسة ١٩٦٧ برزت ملامح ادبية متمثلة في القصة و الرواية يتنفس الروائي من خلالها غمه و همه و يرد عواطفه تجاه الوطن و يتخذها سلاحا بوجه العدو الشرس و الغاشم ليبرهن على وجوده و حضوره رغم غيابه عن الوطن.

ان القارئ و المتتبع لمأساة فلسطين التي طفحت على السطح من خلال الروايات لا يغيب عن باله روايات جبرا الذي استقر في بغداد و تجنس بها منعزلا عن النشاط السياسي و الحزبي مولعا بالكتابة و الاعمال الثقافية حامل في صدره و قلبه هموم القدس. و قد نتفق مع فاروق عبدالقادر اذ نقول (( ما أنجزه جبرا ابراهيم جبرا في عالم الرواية هو اهم انجازاته)) (عبدالقادر، ٤٠) و جبرا في سرده عن السفينة و بشده خيوط الشخصيات الرئيسة و التابعة يتحدث عن حاضر و ماضي هؤلاء و عن تمردهم و عن اجتماعهم في السفينة التي تبحر بين بيروت و نابولي و رغم الايام القليلة تتفجر فيها الاحداث من شبق و حقد و عاطفة إلى ذكريات قديمة و الحديث عن الانسان و آماله.

لابد من الإشارة إلى أن بعض بطلات جبرا إبراهيم جبرا، وتحديداً في روايته "السفينة" و"البحث عن وليد مسعود"، قد أبدين تعاطفاً ملموساً تجاه فلسطين التي ينتمي إليها بطلا الروايتين، لكن هذا التعاطف أو الميل أو الاندفاع لم يكن نتيجة وعيهن الثوري أو القومي، بل كان نتيجة لعلاقتهن العاطفية ببطلي الروايتين: وديع عساف و وليد مسعود، اللذين لم تستطع مظاهر الحياة المترفة التي عاشاها أن تصرفهما عن قضيتهما أو تبعدهما عن أرضهما ووطنهما. تقول "مريم الصفار" المرأة العراقية التي أحبت وليداً، ورافقته في زيارته إلى القدس وبيت لحم قبل عام ١٩٦٧ ((أحسست على غير ماتوقّع، بأنني جزء من تلك الأرض الحجرية الصُلبة، جزء من صمودها وعنادها، جزء من قدسيتها وأن حبي مقدّس مثلها وعليّ أن أستمر بذلك الحب مهما حدث)) (جبرا، البحث عن وليد مسعود، ٢٠٥).

لكن مريم لم تفِ بوعدها ولم تستمر في تجربتها بحكم طبيعة شخصيتها القلقة والمتناقضة، الساعية وراء بعض المغامرات العاطفية الرخيصة السريعة، على خلاف "وصال رؤوف" التي كانت تتمتع بقسط معقول من الوعي السياسي والقومي، تجلى في ممارستها بعض الأنشطة الاجتماعية لدعم صمود الشعب الفلسطيني والمقاومة من خلال نشاطها في جمعية الهلال الأحمر إذ كانت تبيع ((الثياب الفلسطينية المطرّزة بنقوش بيت لحم ورام الله)) (المصدر نفسه ،٢٢٧ ) وقد أحبت "وصال" وليد مسعود بصدق وإخلاص، كما أحبها هو.

وعلى غرار ما قاله الشامي نقول: ((إنه لدى دراسة علاقة المرأة بالوطن ولدى الوقوف على نضالها داخل أرض الوطن، تبين لنا الدور الهام الذي لعبته في النضال ضد العدو القومي والطبقي وقد انحصر نضالها بداية في نطاق التعبئة والتحريض والتوجيه وزرع بذور النضال في وجدان الأبناء وتنامى فيما بعد مع تنامي حركة الواقع الاجتماعي والسياسي.)) ( الشامي، ١٢٥).

ولدى دراسة نضال المرأة و الدور الهام الذي لعبته الأمهات في الشتات، لقد صمدن أمام وطأة الظروف اليومية والسياسية، إذ شاركن الرجل في حمل أعباء الأسرة ودفع الأبناء للعمل الثوري ومع تنامي حركة المد الثوري تجاوزت المرأة دورها الأمومي وأصبحت تمارس العمل السياسي والإعلامي والعسكري.

لقد أعطى الروائي جبرا ابراهيم جبرا لنضال المرأة العراقية بعداً قومياً وإن كان بشكل خجول، كما كانت وصال رؤوف العراقية في "البحث عن وليد مسعود".

**٢-المرأة الإيجابية و المرأة السلبية**

يعد الكاتب جبرا إبراهيم جبرا أبرز من جسّد فنياً وفكرياً ازدواجيات المثقّف العربي ولا سيما المرأة المثقفة سليلة الطبقة الإقطاعية أو البرجوازية، التي تعيش شتى تناقضات الواقع، فجاءت شخصيتا "نوار الكرمي" في ثنائية سحر خليفة و "وصال رؤوف" في البحث عن وليد مسعود لتجسدا نموذج المرأة المثقفة الانتقالية المترجح ((بين الفكر والممارسة، الوعي والواقع، القيم القديمة، وظروف الحياة الجديدة... الباحث في أكثر من اتجاه عن طرف الخيط الموصل إلى تحقيق الذات)). ( فراج،١٦).

وإذ تداعت "نوار" تحت وطأة الظروف وقهر الزمن ولم تستطع الصمود طويلاً، فإن "وصال" في "البحث عن وليد مسعود" استطاعت أن تتحدى الظروف وتبقى وفية لوليد مسعود الذي أحبته بصدق وشغف وآمنت بقضيته على الرغم مما بينهما من فروق في السن والدين والاهتمامات.

تكشف الرواية النقاب عن هذه الشخصية التي كانت لغزا تحت اسم "شهد" في الصفحات الأولى من الرواية وتتضح صورتها بجلاء في الفصل الذي أفرد لها تحت عنوان: "وصال" رؤوف تكشف أوراقها".

ووصال شابة، تنحدر من أسرة بغدادية برجوازية مثقفة، ذات ميول أدبية، تعمل موظفة في المصرف العربي، تبدو واثقة من نفسها، صادقة وصريحة في التعبير عن عواطفها وأفكارها ويعود السبب في ذلك إلى ظروف نشأتها وبيئتها، فقد نشأت في أسرة متفتحة فكرياً واجتماعياً، كانت لها بعض النشاطات الاجتماعية البسيطة لدعم المقاومة الفلسطينية من خلال نشاطها في جمعية الهلال الأحمر، إذ كانت تبيع ((الثياب الفلسطينية المطرزة بنقوش بيت لحم ورام الله))( جبرا،البحث عن وليد مسعود، ٢٢٧) ، وبذلك كانت تملأ فراغ حياتها وتدفع عنها السأم والملل.

تكمن أزمة وصال رؤوف كمثقفة برجوازية، في السعي لتحقيق وجودها، من خلال ((البحث عن الحبيب، إذ لم يعد كافياً أن تظفر... برجل يقدر أن يهبها الحب وإنما المهم أن تحس إحساساً صادقاً بأنه بالتّمام الشق الثاني والمكمّل الحقيقي لوجودها))( وادي،٨٠) وقد تحقق لوصال ما تصبو إليه في رجلها المثالي الذي يرضى طموحاتها، حين التقت "وليد مسعود" ذلك الفلسطيني الكهل، المنفي عن أرضه منذ النكبة، الذي ذاع صيته في أوساط الطبقة البرجوازية المثقفة في المجتمع البغدادي، ولكنه في الوقت نفسه كان بعيداً عن الاندماج الكلي في عالمها المضطرب والمتناقض لأن جذوره الحقيقية كانت مزروعة هناك، في تربة وطنه فلسطين، إذ كان دائم البحث عن ذاته الضائعة التي لا يجدها إلا عبر الالتحام بأرضه والعودة الحقيقية إلى فردوسه المفقود.

وقد ارتبطت "وصال رؤوف" عاطفياً بوليد مسعود وكان ذلك منذ أكثر من سبع سنين ولم تكن تجاوزت آنذاك العشرين من عمرها، حين كان يتردد على منزل العائلة وتربطه بوالدها وأخيها طارق صداقة كانت آنذاك تعد مجرد تفكيره بها أمراً مستحيلاً تقول لنفسها: ((ربما خطرت بباله كومضة من ومضات المستحيل وأنا تشدني عاطفة مبهمة أخشى أن أستوضحها حتى لنفسي))(جبرا، البحث عن وليد مسعود، ٢٢١-٢٢٢) ولكنها فيما بعد أصبحت تراه صيداً جميلاً، يلذّ لها أن تطارده وتستأثر بحبه وكان لها ما أرادت بفضل جرأتها وتصميمها على التعبير عن إعجابها به وحبها له.

وبدأت التحولات الإيجابية في مسار حياتها واهتماماتها وباتت تعي ذلك التغيير الحاصل في نظرتها لذاتها وللعالم من حولها بعد أن أدركت زيف العلاقات الاجتماعية في وسطها البرجوازي من خلال اندماجها وتوحّدها بوليد مسعود وعالمه، إذ استطاعت أن تنفذ إلى عالمه الداخلي الزاخر وتدور ((في مداراته الذهنية... النفسية والعاطفية))( المصدر نفسه ،٢٣٣ ).

وتعبر عن ذلك فتقول: ((تجربتي معه بالنسبة إلى تجاربي الأخرى، هزت الأرض تحت قدمي فتجاربي (وربما كنت في ذلك كغيري من الناس) تضعني على مبعدة من هؤلاء الذين هم من التجربة نفسها: كنت أعي نفسي كشيء منفصل، كشيء ينفعل بقوى خارجة عنه ولا يندمج فيها أما مع وليد فقد جاءني ذلك الكشف الغريب بأنني أندمج،

أصير، اتداخل وأعود وأنا غير ما كنته قبل ذلك. أحسست وهو يتكلم ويناقش ويحاورني ويغازلني، أنني نفذت إلى بواطن إنسان آخر، كأن أحداً سمح لي بدخول بيت كبير مظلم، عجيب الغرف وبيدي شمعة... عرفته من الداخل.... جعلت أعرفه وأحبه، كما أعرف وأحب نفسي))( المصدر نفسه ، ٢٣٣) و حبها لوليد وتوحدها معه، جعلها تلتحم بقضيته ويشغلها ما يشغله من اهتمامات، فغدت شبيهته، تحمل بعض المتناقضات وتعيش ذلك الاندماج الكلي فيه وتعبر عن ذلك صراحة في أكثر من موضع في الرواية.

و ولع وليد مسعود بالكلمات وبسحر مدلولاتها ولاسيما إذا ارتبطت بعواطف المحبين، دفعه لتسمية "وصال" بـ "شهد" لأنها كالشهد، جميلة، شهية، عذبة، وجهها المشرق أبداً ((كالجوهرة، كتفاحة المجانين...))( المصدر نفسه ، ٢٨). كانت تقول لوليد: ((أنت رجلي المثالي، منذ سنين: ألا تدري، أم أنك تتقصد الهرب مني؟))(المصدر نفسه ، ٢٥).

وعلى الرغم مما كان بينهما من فروق ومسافات في العمر والاهتمامات والأحلام، تقرر "وصال" المضي بحبها إلى ما لا نهاية على الرغم من تحذير أخيها لها من نتاج هذه العلاقة، بالإضافة إلى معرفتها بأن القيود الاجتماعية والدينية لن تسمح لها بالاقتران به.

وحين يختفي "وليد" عن مسرح الأحداث، يسبب اختفاؤه لها حزناً عميقاً ولوعة وحسرة، فتلبس السواد وهي تدرك في دخيلتها أنه ((ليس المهم أن تلبس المرأة السواد وأن تعاف نفسها الأكل وأن تحرم النوم وأن ترى الكوابيس.. المهم هو أن تبقى على عقلها، على إرادتها، على قدرتها على التصميم))( المصدر نفسه ،٢٤٠-٢٤١) ولذا تعقد العزم وتبدأ رحلة البحث عن "وليد مسعود"، ولا يقتصر بحثها عنه في أعماقها وذكرياتها وهي تناجيه: ((عيني الكحلاء، تبحث عنك... في دمي، في دخيلة دخيلتي، بين حرقاتي...))( المصدر نفسه ، ٢٣٨) ، بل يتعدى ذلك لتبحث عنه في كل مكان.. فتقوم بجملة من الاتصالات بكل من عرفهم في بيروت وعمان وتركب أول طائرة متجهة إلى بيروت لتبحث عنه هناك ومن ثم لتلتحق بصفوف المقاومة وتلتحم بقضيته وتؤكد انتماءها للقضية ولإنسانها. عندئذ يتحقق لديها الإحساس الغريب الذي أحسته ذات يوم وهي تزور "مروان وليد مسعود" في مخيم صبرا، حين أحست أن المخيم الذي أصبح قاعدة فدائية، يعود بها إلى ((جوهر الأشياء المنسي))( المصدر نفسه ،٢٤٥)

وهاهي تعود إلى جوهر الحياة، حياة ذات معنى، حياة فاعلة منتجة.

((لقد فهمت "وليد" إنساناً غير معزول عن قضية، فكان اختياره اختياراً نهائياً لها. إنها المرأة التي يتحقق فيها ما يبحث عنه "وليد". المرأة التي تحمل عناد الأم وكبرياءها))( وادي،١٧٨-١٧٩).

هكذا كان الحب الحقيقي وراء انتماء "وصال" إلى قضية وليد مسعود إثر التحاقها بصفوف المقاومة، إذ ينتهي دورها في الرواية عند هذا الموقف اللافت والمميز.

وتمثّل "لمى عبد الغني الحمادي" في السفينة شخصية المرأة (السلبية) اللعوب الشبقة التي تسعى وراء أهوائها ورغباتها، ضاربة عرض الحائط بكل القيم الأخلاقية والمثل الاجتماعية. تخون زوجها (فالح حسيب) مع عشيقها "عصام السلمان"(للمزيد راجع حاج، ٥٢) وبذلك تمارس سلطتها المادية التي تستند إلى مفاتنها الجسدية التي أجاد الكاتب تصويرها بدقة وركّز على قدرة الشخصية في إثارة الغرائز والشهوات لدى الرجال، بالقدر الذي تثير حفيظة زوجها وغيرته، فتدفعه إلى مزيد من اليأس والانطواء ومن ثم الانتحار.

وإذا كانت الرواية قد استندت في بناء شخصية "لمى" على ما تملكه من سلطة مادية، تقوم على جمال الوجه والجسد وما فيه من إثارة، فإنّها لم تسخر تلك الجاذبية المظهرية بالصورة الإيجابية بوصفها قيمة إنسانية، بل جعلتها مصدراً لإثارة الرغبات والغرائز وسلاحاً بيد الشخصية، تمارس من خلاله سلطتها المادية على الآخرين مما يدفعها إلى المزيد من الابتذال والضياع والسقوط وكذلك كان الحال بالنسبة لشخصية "مريم الصفّار" في رواية "البحث عن وليد مسعود".

وغالباً ما كان حضور الشخصية المنفِّرة (غير الجاذبة) حضوراً جزئياً وهذا ((يعني أن هذه الشخصية ليست الطرف القابل للشخصية الجاذبة، بل هي نقيض لها فحسب))( الفيصل، ١٣٦) فأم صابر وخضرة لهما حضورهما الروائي ودورهما المحدّد ويستثنى من ذلك شخصية "لمى عبد الغني" التي كان حضورها في الرواية حضوراً كليّاً، فهي

إحدى الشخصيات الأساسية وقد أسهمت في تطوّر حركة الصراع في الرواية من خلال استعمالها لسلطتها المادية التي كان لها أبرز الأثر في دفع زوجها إلى الانتحار وزيادة تناقضات عشيقها وقلقه ومن ثم إخفاقها في حياتها وتشتتها.

### ٣- شخصيّة المرأة التابعة:

((تتصف هذه الشخصية بالحاجة إلى التبعية والدوران في فلك شخصية جاذبة أو منفّرة ومن ثم تفتقر إلى استقلالية الشخصية والموقف))( المصدر نفسه ،١٣٧).

ويلاحظ أن الروائي لم يعتنِ بتقديم الشخصية التابعة التي تمثّل المرأة التقليدية السلبية ولم يركّز على وصفها من الخارج أو الداخل ولم يبرز دورها داخل السياق الروائي، منطلقاً في ذلك من كونها شخصية عابرة، دورها محدود ولا تؤثر في سواها من الشخصيات الروائية.

لعل أبرز الشخصيات التابعة التي تستوقفنا "وصال رؤوف" التي كانت تبعيتها لوليد مسعود تبعيّة كليّة، إذا استمدت حضورها وصفاتها من حضور وصفات الشخصية الجاذبة التي يمثلها "وليد مسعود" فصارت تدور في فلكه وترى ما يراه.

فعلى الرغم مما تتمتع به "وصال رؤوف" من مقوّمات فكرية واجتماعية وجمالية تؤهّلها لتكون شخصية جاذبة تمتلك سلطة معنوية، جعلها الكاتب منجذبة، تابعة لشخصية "وليد مسعود" الذي أحبته بشغف و((دارت في مداراته الذهنية، في مداراتها النفسية والعاطفية))(جبرا، البحث عن وليد مسعود، ٢٣٣) وبذلك جسّدت "وصال رؤوف" الشخصية التابعة التي ترتبط بشخصية جاذبة، تستمد منها حيويتها وأفكارها ومواقفها وتضيء من خلال هذه التبعية بعض الجوانب الغامضة في حياة الشخصية الجاذبة التي يمثّلها وليد مسعود ذلك الغائب الحاضر.

### ٤-علاقة المرأة القلقة:

وهي العلاقات القائمة على أسس غير سليمة منها: عدم التكافؤ والتفاهم والانسجام بين الزوجين وأكثر ما نقع عليها في أوساط الطبقة البرجوازية التي تناولها بالنقد والتعرية عند جبرا إبراهيم جبرا.

وتأخذ العلاقة الزوجية في روايتي جبرا إبراهيم جبرا "السفينة" و"البحث عن وليد مسعود" منحنى آخر، حيث الأزواج والزوجات ينتمون إلى الطبقة البرجوازية السطحية في المجتمع البغدادي وهم في مجملهم مثقفون ثقافة عالية مقبلون بل متهالكون ((على مباهج الحياة بشغف، وحاجة الجسد هي ذروة اللذة الحسية)) ( وادي، ١٥٧) لديهم. يعانون بعض الأزمات النفسية والاجتماعية والفكرية، يتسمون بعدم القدرة بل بالعجز عن التغيير ويسقطون أخيراً في أتون الميوعة والتناقض والفوضى والتمزق والتوترات النفسية(وادي: ١٦٥-١٦٩-١٧٠) بل و اصبحت تلك السمات صفة لازمة لتلك الشخصيات فمن دونها تنسلخ الرواية من مسيرها الذي رسمها لها الروائي.

ففي روايته المتميزة "السفينة" (١٩٧٠) التي تجري أحداثها على متن السفينة اليونانية "هيركوليس" أثناء إحدى الرحلات في البحر الأبيض المتوسط، يعالج جبرا مجموعة متشابكة من العلاقات بين شخصيات الرواية إذ ((يشكل الماضي عبئاً ثقيلاً على كل الشخصيات رغم لحظات السعادة والهناءة التي عاشها بعض منها فالمحصلة لا يمكن احتمالها لأن ثقلها النفسي لا يطاق)).( أبو مطر، ٢٢٠، الزعبي، ٣١).

لقد اختار جبرا "السفينة" لكونها ((مكاناً ممتازاً للقاء هذه المجموعة الكبيرة من الناس))( خوري، ٦٨) ولكونها وهي تشق طريقها في البحر ((تسمح.. للعلاقات الإنسانية بأن تأخذ مداها الكامل، تتفاعل، تتحاور، تتصادم في محاولة لاكتشاف مبرر الوجود ولمراجعة الذات بشكل جماعي ومتحرر من الضغط الاجتماعي فالعلاقة العابرة التي تشد الشخصيات ببعضها تسمح لها بالتعبير بجدية كبيرة)) ( خوري، ٦٨-٦٩). هذه السفينة التي صورها الروائي هي الملاذ الذي يلوذ اليه كل فرد من افراد القصة ليعبر عن كنه تعقيدات مسيرة حياته الغامضة.

أما البحر فهو، كما أشار جبرا في بداية روايته "جسر الخلاص" وربما كان ((عبارة عن ستارة خلفية هادئة لهذه النشاطات التي تقوم بها الشخصيات))( آلن، ١٤٨) وما يهمنا من هذه النشاطات والعلاقات تلك العلاقات القائمة بين

الأزواج وتحديداً فيما بين الدكتور فالح حسيب ولمى عبد الغني .

ينتمي الدكتور فالح إلى الطبقة البرجوازية التي تنتمي إليها "لمى" وهو طبيب جراح تربطه بأهل "لمى" أواصر قربى ويحظى لديهم بمكانة بارزة ولذا يلقى طلبه يدها قبولاً وترحيباً من الأهل وترغم "لمى" على الزواج منه بعد تخرجها وعودتها من اكسفورد(جبرا، السفينة، ١٠٣) أما هي فكانت قبل زواجها على علاقة عاطفية جسدية مع صديقها وحبيبها "عصام السلمان" وقد استمرت تلك العلاقة طوال فترة دراستها في إنكلترا وامتدت إلى ما بعد زواجها ويعود السبب في عدم زواجهما إلى وجود ثأر بين العائلتين وبحكم العادات العشائرية السائدة في بعض أوساط المجتمع العراقي آنذاك (١٩٨٥)، حكم على العلاقة بين لمى وعصام بالموت وبدافع الإحباط واليأس ((أقدمت لمى.. على زواج يتوافق مع المصالح الاجتماعية))( آلن،١٤٣) لكلتا العائلتين، إذ تزوجت الدكتور فالح ولكنه كان زواجاً تعيساً لما بين الزوجين من تناقض صارخ في المشاعر والاهتمامات والأفكار ولأن كلاً منهما كان يحمل في داخله بذور الانكسار والخيانة والسقوط، فقد كان المصير فاجعاً.

فمنذ الصفحات الأولى في الرواية، تتكشف أمامنا صور شتى لعلاقات اجتماعية مأزومة ومشبوهة ونفوس مشبعة بالانكسار والألم، تخبرنا بهشاشة هذه الطبقة التي تنتمي إليها معظم شخصيات جبرا وتداعيها من الداخل، كل منها ((عنده مشكلة، كل هارب، كل يعيش في الوهم وفي الذكريات، كل يبحث عن أسباب مأساته: السلطة، التقاليد، الأرض، السياسة، الحرية، الحب، العدالة.. أما الحل فكان عن طريق.. الكلام الذي حوّل السفينة إلى مسرح للعبث ومن خلال هذا العبث انبعثت شهوة الحياة وشهوة الموت: الحب والانتحار. لا حدث ينمو، ولا حديث ينمو، الوهم وحده ينمو ويكبر. فجر هذا الوهم حدثاً واحداً: انتحار فالح. إلا أن هذا التفجر كان آنياً وعابراً. أما الرحلة فقد استمرت تبحث عن الخلاص من خلال الوهم. تبحث عن مخرج بطريق عبثي نابع من انهزامية في مواجهة الواقع))(فرنجية، ٥١) وأكثر ما تجلت هذه الانهزامية في شخصية الدكتور فالح زوج لمى، فهو ((سوداوي، كثير العزلة.. ناقم على العالم وعلى نفسه، ممزق.. مغترب.. يرى العالم مملوءاً بالدود)) ( فرنجية، ٥٤) يقول: ((إنني ألعن هذا العصر.. كل إنسان منا، كل واحد منكم مسيح ويهوذا معاً... دودة تلتهم دودة. إننا في مملكة الدودة)) (جبرا، السفينة ، ١١٢) وقد أدرك أحد أصدقائه سر نقمته إذ يقول: ((من الواضح أن له من الذكاء ما يجعل لنقمته أوجهاً عديدة ومعاني كثيرة وإن تكن زوجته.. السبب الأول في هذه النقمة. فالح.. متزمت.. ولكنه أصر على الزواج من امرأة توحي بالحرية والانفلات ولها.. من الذكاء ما يجعل لجمالها ألف وجه ومعنى إزاء نقمته على الحياة)) ( المصدر نفسه، ١١٦).

ولعل أحد أسباب هذه النقمة يكمن في عدم الثقة بزوجه، فعندما تنعدم الثقة بين الزوجين وتضرم الغيرة نيرانها في صدر الزوج، يصبح كل شيء بينهما مضطرباً ومعرضاً للانهيار ولهذا فهو يلازمها ويراقبها ضارباً حولها دائرة سحرية تمنع الآخرين من اقتحامها.

وإذا كان لجمال "لمى" وفتنتها ذلك الأثر البالغ على الرجال من حولها، فتجذبهم إليها وتثير في نفوس بعضهم مشاعر متباينة، فيها الإعجاب والرغبة والغيرة والامتعاض والحسد والكراهية.. فإن ذلك كان مصدر قلق واضطراب وشقاء بالنسبة لزوجها.

ولقد تنبأ "فرنندو" الإسباني بالفاجعة قبل وقوعها وهو يتحدث مع عصام السلمان عن الحب والجمال وأثر ذلك في الإنسان العربي وكان يقصد بحديثه الدكتور فالح: يقول: ((العرب والإسبان من دم واحد.. يقتلون من أجل المرأة، ويقتلون المرأة عشقاً وغيرة وشرفاً، والعرب والإسبان وحدهم.. يعرفون عبادة الجمال في المرأة.. أما السنيوريتا "لمى" فلن يكون لجمالها من نهاية إلا المأساة))( المصدر نفسه، ٢٧).

ويصدق حدس "فرنندو" وتبدأ المأساة تنسج خيوطها حول الزوج الخادع والمخدوع في آن معاً وذلك حين تندفع "لمى" للرقص على أنغام أم كلثوم وكان الطبيب يتتبع تماوجها واستدارتها بعين الفخور آنا وبعين المحرج آنا..

لقد كانت تلك الرقصة هي الحكم عليه بالموت، إذ أحس بطعنة دامية أصابته في كبريائه وكرامته وأجهزت على كل ما تبقى لديه من مكابرة وتجمل بالصبر والاتزان مما زاد في انشطاره النفسي وكآبته وسوداويته وإحساسه بتفاهة العالم من حوله وضاعف مأساته، شكه بزوجه ومن ثم يقينه بخيانتها له مع عصام السلمان بعد أن رأهما معاً

خارجين بنزهة.. في أحد شوارع نابولي.. فبات يعاني شعوراً حاداً بالكآبة واليأس وأصبح يكثر من الشراب ولا يعود لقمرته إلا مخموراً وقد قارب السكر حينئذ يستطيع الاختلاء بها.

و ((ترسم (السفينة) صورة مقيتة لعلاقات الحب والزواج.. الحب يتحول إلى قيمة متدنية، يستهدف الخلاص عن طريق الطرف الآخر ويبنى على حب الجسد وحب الخيانة. حب فالح لزوجته لا يقصد منه الحب نفسه بقدر ما يقصد منه أن يجد فالح في لمى جسراً لخلاصه وكذلك حب إميليا لفالح هو بحث عن الخلاص من أزمة اليأس)) (فرنجية: ٦٤-٦٥).

ان جميع شخصيات السفينة مثقفة ومن طبقة برجوازية و الحالة المادية جيدة ، ناجحون في حياتهم العملية ، الا انهم على الصعيد الذاتي و النفسي يعانون كالسفينة من حالة نفسية ذاتية غير مستقرة و تتولد هذه الحالة الاهتزازية (اللااستقرارية) في نفسية الشخصيات نتيجة الماضي الذي تكشفه الرواية.

وإذ تسلط الرواية الضوء على جانب هام من تلك العلاقة اللاأخلاقية التي تنشأ في بعض أوساط الطبقة البرجوازية السطحية فإنها تعري زيف مثل تلك العلاقات التي تقوم على المجاملة والخداع والخيانة وتنطوي على الفجيعة فتكشف الرواية هذا التقابل والتبادل بين خيانة كل طرف للآخر ففي الوقت الذي تخون فيه لمى زوجها مع عصام كان فالح يخونها مع عشيقته إميليا فيمارسان الحب في قمرة الأخيرة.

وهكذا يتلقى الزوج صدمة عنيفة تفقده توازنه وتزيد من تمزقه ومعاناته وتسرع في تنفيذ قرار الانتحار الذي سبق أن اتخذه تعبيراً عن سخطه واستنكاره وغيرته وخلاصاً من حالة القلق والانشطار التي كان يعانيها بشكل حاد وهذا ما كشفت عنه مذكراته واعترافه الذي تركه لزوجته: ((إنني أحببتك حباً هو أقرب إلى العجز ولكنه حب شغلني ومتعني وفي بعض الأحايين عذبني)) (جبرا، السفينة ، ٢١٥ ).. ((كنت أطلب فيك ملجأ لتوزعي وانشطاري ولكنني انخذلت فيك. كنت جداراً عجزت عن اختراقه)) ( المصدر نفسه، ٢١٦) وفي الوقت الذي كان يضع حداً لحياته المعذبة كانت "لمى" مع "عصام" تمارس الحب.

ويأخذ التناقض بين الأزواج شكلاً أكثر بروزاً واتساعاً في "البحث عن وليد مسعود" إذ تبدو العلاقة بين الزوجين هشام الصفار ومريم الصفار متوترة، مأزومة، تلفها الخيانة بسبب الخلل الكامن في شخصيتهما وفي علاقة بعضهما ببعض، فمريم ((مصابة بنوع من الأرق الدائم والصداع الشديد، تعيش أزمة اغتراب بسبب التناقض الناجم بين الظاهر والباطن، فالظاهر هي زوجة هشام، الرجل ذي المركز المتنفذ، تملك بيوتاً وسيارات... تقوم برحلات وإجازات وتسافر كثيراً والداخل: غير سعيدة مع زوجها، فزوجها رجل صنعته الوظيفة، تافه، غير مقتنعة به ولا تنسجم معه ، حياتها مبنية على الكبت.. تشعر بوحدة مطلقة وباتت غريقة الوهم)) ( فرنجية، ٧٢).

أما زوجها هشام فهو كما يصفه صديقه طارق رؤوف: ((.. شديد الانضباط.. شديد التفاهة، لا أحسبه كان يجد هدفاً في حياته أعظم وأبهى من الكرسي الجلدي الأسود وراء منضدة خشبية.. ومريم كقطعة من جمر، تتأجج في البيت عاطفة وخيالاً وتحرقاً للحياة، يقابلها رجل فاشل لا يهتم الا بنفسه،...)) (جبرا، البحث عن وليد مسعود،١٢٨).

وإزاء هذا التناقض، أخذت تتسع الفجوة بين الزوجين ويزداد انجراف كل منهما وراء رغباته ونزواته، جاعلين من الفجور أسلوباً لهما في الحياة. لم تكن "مريم" لتشعر بالسعادة والاستقرار يوماً، فقد كانت تمقت زوجها ولا تحفل بما يريد من الحياة. كانت ردود فعله على تصرفاتها مع الأصدقاء تتسم بالعصبية وتتحول فجأة إلى العنف والتهديد بقتلها أو الانتحار.. وأكثر من مرة استعمل قوته العضلية معها وأخذها اغتصاباً.. حتى باتت تكره اقترابه الجنسي منها. كانت غيرته تدفعه إلى بلاهات في القول والفعل وصارت هي فيما بعد تشجعها عامدة(جبرا،البحث عن وليد مسعود ، ١٨٠-١٨١)

هكذا تضعنا روايتا جبرا أمام علاقات زوجية مأزومة، متناحرة، متناقضة، فالسقوط المدمر الذي مثله "فالح" (كان ذروة المأساة.. وانتحاره لم يكن انتحاراً يائساً، إنه جنون فعدم القدرة على التواصل مع الآخرين والضغط

الاجتماعي الذي يقذفه خارجاً، يدفع به إلى تدمير ذاته، بعد أن عجز عن تدمير العالم (( أما زوجه لمى فقد مثلت "اليأس من الواقع والرضوخ له في آخر المطاف))(خوري، ٧١) على حين مثل إخفاق زواج هشام ومريم الصفار وانهيار علاقتهما وضياع مريم، ضياع طبقة أعلنت عنه تلك الشخصيات في روايتي جبرا وجاء انتحار الدكتور فالح لينبئ عن انهيارها فيما بعد.

**تحليل لشخصيتي لمى عبد الغني، ومريم الصفار في روايتي:**

**"السفينة، والبحث عن وليد مسعود"**

كان طريق الخلاص والتحرر قد أصبح سالكاً –إلى حد بعيد– أمام سائر نساء جبرا العراقيات، المثقفات البرجوازيات اللواتي أتيحت لهن فرصة السفر والتعلم والحصول على شهادات عالية وشرعت الأبواب أمامهن للمشاركة إلى جنب الرجل في شتى الميادين الاجتماعية والثقافية والفكرية والعلمية بعد أن أتاحت لهن ظروفهن ممارسة الكثير من حقوقهن بعيداً عن رقابة الأهل وسلطتهم، فهل استطعن تجاوز سلبيات الواقع وتناقضاته وتحقيق ذواتهن وتأكيد هويتهن بجدارة وفاعلية؟(للمزيد راجع الشامي )

كان لحضور المرأة العربية –العراقية التي تنتمي إلى الطبقة البرجوازية المثقفة، حضوراً بارزاً ومميّزا، ففي روايتيه السفينة، والبحث عن وليد مسعود ((يقودنا جبرا إلى عالم البرجوازية من خلال مجموعة من نماذج المثقفين البرجوازيين بعلاقاتهم الاجتماعية المتشابكة، ضمن دائرتهم المكتظة بالكتب والتي تفوح منها رائحة الخمر وأجساد النساء ويعلو الضجيج حول مسائل فكرية أرهقت المثقفين الغربيين منذ صعود البرجوازية الأوروبية... عالم هؤلاء بخلفيتهم الطبقية والثقافية واهتماماتهم الفنية والفكرية وعالم الفلسطيني وديع عساف، ووليد مسعود في وسطهم، برجوازي المنفى، المتميز ذهنياً "وروحياً"... المشدود إلى الذاكرة والوطن، عالم هؤلاء جميعاً هو عالم جبرا إبراهيم جبرا))( وادي، ١٦٩-١٧٠).

وبمعنى آخر يمكن القول: إن ((الهرب، النفي، الوحدة، الانتحار، الاغتراب، قلق المثقف المعاصر وخصوصاً المثقف العربي، كل هذه هي المواضيع الرئيسة التي يستكشفها جبرا))(آلن، ١٤٩) في أعماله الروائية ولا سيما في روايتيه: السفينة والبحث عن وليد مسعود.

وقد كان لوعي جبرا إبراهيم جبرا الفكري والاجتماعي بواقع الطبقة البرجوازية والتناقضات الحادة التي يعيشها أبناؤها ما يعلل ضياع عدد غير قليل من شخصيات جبرا الروائية ولا سيما النسائية منها.

لقد أتاحت الظروف لكل من لمى عبد الغني في "السفينة" ومريم الصفار في "البحث عن وليد مسعود" –وكذلك لمعظم الشخصيات النسائية لجبرا– فرصة التحرر من كثير من القيود الاجتماعية، والضوابط الأخلاقية التي تضبط سلوك الإنسان وهما تجسدان هذا التحرر بل هذا الانطلاق في الدراسة في الخارج وحرية الرأي والتصرف والحب والعمل والتنقل ولكن جبرا عمد إلى صياغة كل منهما تمثالاً مجوفاً للحرية لأنهما أساءتا التصرف بهذا الحق فجاءت تصرفاتهما ومواقفهما خالية من أي معنى فكري أو اجتماعي أو أخلاقي لتعبر عن الأزمة الحقيقية التي تعيشها كل منهما وهما في قمة الحيرة بين معنى الروح والجسد بين الحب الحقيقي و الحب الظاهري بين الحرية بمفهومها الحقيقي والحرية التي تعني الانفلات والإباحية فكان الحب الظاهري تعويضاً عن قلقلهما واغترابهما.

وإذ يطرح في روايتيه بعض القضايا الاجتماعية والفكرية والنفسية التي ترتبط بالمرأة المثقفة المتحررة المنطلقة على الطراز الغربي فإنه يركز بصورة خاصة على تفسخ العلاقات الأسرية والاجتماعية في المجتمع البرجوازي السطحي ويبرز هشاشة الشخصية المثقفة وقلقلها ولذا نجد الشخصية حين لا تستطيع المواجهة تلجأ إلى الهروب عبر البحث عن المتعة الحسية (الجنس والخمر) والتستر وراء المظاهر الخادعة، السفسطة الكلامية، وهذا ما نلمسه لدى لمى الحمادي وزوجها وعشيقها، وكذلك لدى مريم الصفار وزوجها وعشاقها في كثير من الأحيان.

ونبحر مع جبرا على سفينته إلى عالم المرأة المثقفة الضائعة المتمثل في السيدة البغدادية "لمى عبد الغني" لنقف

على معالم صورتها وأبعاد شخصيتها ثم نعبر من خلالها إلى شخصية السيدة البغدادية الأخرى "مريم الصفار" التي تعد امتداداً لشخصية "لمى" فكلتاهما تعيش حالة من القلق والضياع، وإن وجدت بينهما بعض الفروق التي تميز كلاً منهما عن الأخرى.

تقدم "السفينة" لمى عبد الغني بقوامها الجميل ومظهرها الجاذب وشخصيتها المنطلقة التي ((توحي بالحرية والانفلات واللذة))(جبرا، السفينة ، ١١٦ ). تخرجت من جامعة أكسفورد وهي ذات نزعة أرستقراطية متعالية تنحدر من أسرة برجوازية مثقفة ومتنفذة أطاحت بها ثورة عام ١٩٥٨، فخسرت معظم امتيازاتها، تعمل "لمى" محاضرة في جامعة بغداد وكانت لها بعض النزوات التي تدل على انطلاقها وشبقها، فقد استطاعت أن تقنع زوجها الدكتور فالح حسيب بالسفر على متن السفينة وهي تبغي من وراء ذلك ملاحقة عشيقها "عصام السلمان"، والبحث عن السعادة والمتعة الحسية والهروب من الماضي ووطأة الحاضر وقد استحوذت على إعجاب العديد من الرجال على ظهر السفينة.

وعلى الرغم مما تبدو فيه من مظاهر الترف والمرح والانطلاق، كانت تعاني أزمة نفسية حادة نتيجة للصراع المحتدم في داخلها بين الوفاء للزوج الذي اضطرت للاقتران به تحت ضغط الظروف، والاستجابة لنداء القلب والجسد بعد أن حرمت من الزواج من عصام السلمان بسبب ممانعة الأهل وسطوة بعض العادات والتقاليد التي فرقت بين الحبيبين عصام ولمى لوجود ثأر بين العائلتين.

وكان لزواجها العاثر أثر بالغ فيما تعاني منه إذ زادها إحساساً بالتناقض بين الواقع والحلم ودفعها إلى الإغراق في البحث عن المتعة والسعادة والجموح في أهوائها.

لقد كانت لـ "لمى" شخصيتها القوية منذ فترة مبكرة من عمرها حين أعلنت رفضها لأوامر الأهل ونواهيهم وبدأت تستقل برأيها وتفكر بنفسها فاستطاعت أن تتابع دراستها في أكسفورد، وهناك عرفت "عصام" وارتبطا بعلاقة عاطفية جنسية، وحين أوشكت على نهاية دراستها وحصلت على درجة الماجستير في الفلسفة ازدادت ثقة بنفسها وبقدراتها وبتفتح وعيها. تقول: (( شعرت كأنني في ثلاثة أعوام قد عشت مئة عام. نضجت وغدوت حكيمة جداً))( المصدر نفسه، ١٦١ ) فكبرت أحلامها، وتمادت في علاقتها مع عصام السلمان.

ولكن على الرغم من ذلك الشعور الذي يمنحها الثقة بالنفس، لم تستطع تحديد هدفها في الحياة ولم تضع حداً لتصرفاتها المتطرفة ولعواطفها الجامحة فكانت أول الخاسرات، ويأتي وصف "وديع عساف" لها وهي ترقص بغنج ودلال ليؤكد تلك النزعة: ((لقد كانت شيئاً مستحيلاً، آلهة تترنح بين الحلم والحقيقة، أو جسداً شيطانياً لفظته الأمواج من قمقم قديم. كانت عيناها مكحلّتين بأسود... فتبدو العينان واسعتين، تجسدان توق الشعراء والرسامين وأوهامهم اللذيذة. الغانية الذكية، فريسة الهوى التي تفترس محبيها... وحتى جسدها وهو يتثنى ويتكسر ويبرز الخفي والشهي، يبدو ولوهلة ما، كأنه يذوب في النسيم، ويشف ويتلاشى))( المصدر نفسه، ٩٦) وقد كانت تلك الرقصة هي الحكم على زوجها بالموت.

ويؤكد "عصام السلمان" تلك النزعة وهو يعبر عن غضبه منها وتوقه إليها حين كانت تعاتبه وتحمله تبعات زواجها من قريبها وتذكره بالماضي وبقتل والده لعمها. يقول: ((...لا أدري ما الذي تريده مني هذه السادية الشريرة التي كرهتها في تلك اللحظة، كراهيتي لأبي، لماضي، لحاضري... لكل ما يحيط بي من حياة وعنفوان. وودت لو أقع على جسدها أنهشه حقداً و ...))( المصدر نفسه، ١٦٣-١٦٤ ).

ولم يستطع عصام السلمان تحديد موقفه النهائي من "لمى" وطبقتها فهو على الرغم من انتمائه إلى الطبقة الكادحة كان ذا نزعة برجوازية ولذا اتسمت مواقفه منها بالتعاطف حيناً والتناقض أحياناً، فهو العاشق الذي يحبها ويشتهيها، يتوق للقائها ويدعى الإخلاص لحبه وفى الوقت نفسه كان كارهاً لطبقتها، حاقداً عليها، متشفياً مما جرى لها إبان ثورة ١٩٥٨م (هى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وتعرف أيضا بحركة أو انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨، التى أطاحت بالمملكة العراقية حيث كان الملك فيصل الثانى ملكاً على العراق وقد اختلف المؤرخون في تقييم نظام الحكم الملكي كما اختلفوا في تسمية الحركة ما بين الانقلاب والثورة –وكبيديا–) ومن هنا لم يستطع أن يكون وفياً أو ناصحاً وموجهاً لـ "لمى" بل اكتفى بالنهل من جسدها المتفجر بالأنوثة في غفلة من زوجها كما روت السيدة "مريم الصفار" في رواية "البحث عن وليد مسعود"

ظمأ جسدها الشبق من خلال علاقاتها المتعددة مع أكثر من رجل.

((تبرز "مريم الصفار" بحضورها وثراء شخصيتها الروائية، متزوجة تعسة، ومطلقة منطلقة. أحبت "وليد"، اقتحم...، ... نراها جميلة، "متحررة" لا تضع رادعاً أمام إلحاح جسدها...، فأقامت علاقات تصل إلى حد الابتذال والهوس...، عرفها الدكتور طارق، وعامر، وآخرون إضافة إلى وليد... نعرفها من خلال مذكراتها "فتتكشف" أمامنا لاهثة، متقطعة، متوترة، تكشف عن ذاتها المريضة حتى النهاية))( وادي، ١٧٨) إذ كانت تعاني حالة من الأرق والصداع وتعيش توتراً حاداً. كانت تجد متعة فائقة وهي تشبع ميولها النرجسية حين تجتذب رجلاً غير عادي مثل عامر عبد الحميد: ((متعالياً، أنوفاً، مرموقاً، يخالط النساء والرجال بالعشرات،... طفلاً ساذجاً، عاجزاً يطلب مني حمايته من العالم))(جبرا، البحث عن وليد مسعود، ١٨٢-١٨٣). وهي تعبر عن تلك المفارقة بألم وحسرة: ((أي حماقة، وأنا الواقعة بين حجري رحى: بين اندفاعاتي المهووسة، وبين شقائي الزوجي. أنظر إلى وجهي في المرآة، وأحس بجماله إحساساً نرجسياً، ولكنني أحس أيضاً بلعنة تخالطه، ولا أعرف أين تكون حمايتي منها))(المصدر نفسه، ١٨٣ ).

ومريم، كغيرها من شخصيات جبرا النسائية، مثقفة برجوازية، متحررة على الطريقة الأوروبية، ذات ميول أدبية، ينم عنها حديثها وتتضح في مذكراتها واعترافاتها التي دونتها في دفترها السري و وضعته تحت تصرف الدكتور طارق رؤوف، طبيبها النفسي الذي بات طبيباً لمرضها، وعشيقاً...، وكاهناً لمراسيم كوابيسها اليومية وتكشف مذكراتها اضطرابها النفسي وطبيعة تكوينها الفكري والاجتماعي، كما تفصح عن شهوتها المحتدمة التي لا تنطفئ، بأمانة عجيبة.

ويتساءل الدكتور طارق رؤوف وهو يحاول تحليل عقدة وليد مسعود "الدون جوانية" وسر انجذاب النساء إليه، ملقياً الضوء –في الوقت نفسه– على أزمة مريم الصفار النفسية وكذلك أزمة سائر النساء اللواتي عرفهن وليد: ((هل كانت عقدة وليد "الدون جوانية" أنه في أعماق لا وعيه، يخشى أن يفقد رجولته، فراح يلوح بها في الأسرة يميناً وشمالاً، رجل ضائع في حقيقة الأمر،... لِوَهْمٍ من الوطن، لِوَهْمٍ من الانتماء، يسعى نحوها بعزيمة لا تكل، ولا يلقاها إلا بتلويحه في حالات اليأس، بهذا الذي يعوض له عن فقدان آخر. من هنا كانت قدرته الشاذة على إقامة العلاقات مع النساء))( المصدر نفسه، ١٥٣). كم حمل مريم وحلق بها في رحاب النشوة، منطلقاً إلى عالم الوهم والضياع والقلق والسعادة الزائفة.

هكذا جسدت شخصيتا "لمى عبد الغني" و "مريم الصفار" نموذج المرأة البرجوازية المثقفة الضائعة وقد تجلى ضياعهما في عجزهما عن تجاوز حدود الذات الضيقة وعدم قدرتهما على صياغة أي مشروع ذي نفع على الصعيدين الخاص أو العام وتجلى أيضاً في سقوطهما المروّع في حمّى الجسد وقد انتهكتا قدسية ذلك الرباط الزوجي المقدس وكل القيم الأخلاقية، فوقعتا فريسة القلق والوهم والضياع بسبب البحث عن المتعة الحسية بعد أن ألقتا بنفسيهما في أتون الرغبة إرضاءً لنزعة كلٍّ منهما: سادية لمى، ونرجسيّةٍ مريم.

وإذ يعرض جبرا صورة معبرة عن تلك العلاقات المتفسخة في المجتمع البرجوازي–سليل الإقطاع– من خلال تصويره لشخصيتي " لمى عبد الغني" و "مريم الصفار" وعلاقة كل منهما بأكثر من رجل واحد فإنه يعبر عن مفهومه لمعنى الجنس إذ يرى أن العلاقة بين المرأة والرجل البرجوازيين لا ترتقي إلى مستوى العلاقة الإنسانية النبيلة لأنها غالباً ما تقوم على المصالح النفعية لكلا الطرفين وهي تفتقر إلى الثقة والحب والصدق والوفاء بينهما.

ونلاحظ من خلال تقديم جبرا لهذا النموذج من النساء، تركيزه على إبراز الجانب الخارجي (المظهري) للشخصية البرجوازية فيدقّق في صفاتها الخارجية ويلقي الضوء على مواطن الفتنة والإغراء فيها كما هو الحال في وصفه ل "لمى عبد الغني" وهي ترقص.

وغالباً ما يوغل في التقاط المشاهد المثيرة بين العاشقين اللاهثين وراء المتعة(جبرا، السفينة، ١٥٧–١٥٨ ، جبرا،البحث عن وليد مسعود" ،٢٧٦) لمى وعصام السلمان، مريم الصفار ووليد مسعود... ، ((ولا تخلو المشاهد الروائية في غضون ذلك مما يصدم قيم الواقع، وأخلاقيات الإنسان العربي)) (الولي، ٩٤) في بعض الأوساط البرجوازية.

ويأتي اختيار جبرا إبراهيم جبرا لشخصياته البرجوازية المثقفة ولا سيما النسائية منها وإبرازه لتناقضاتها وعجزها وضياعها بدافع كشف زيف هذه الطبقة. ((وكأن الكاتب قصد محاكمة هذه الطبقة العاجزة عن تحقيق الصيغة الأمثل للحياة: بحكم بنيتها، وقفزها على قوانين التاريخ والصراع))( أبو مطر،٢٢٦) فنقدها وفضح تناقضاتها، يأتي بدافع إدانتها، لا التعاطف معها أو الدعاية لها.

لقد تعددت الشخصيات التي لعبت دور البطولة في الروايتين ونجد ان لمى عبدالغني و وصال رؤوف ومريم الصفار يلعبن دور البطولة من الجانب النسوي في روايتي السفينة و البحث عن وليد مسعود و على هذا الاساس يمكن تشكيل العلاقات بين شخوص الروايتين طبق دور المرأة و تأثيرها في مسير القصة وعلى النحو الآتي :

**السفينة:**

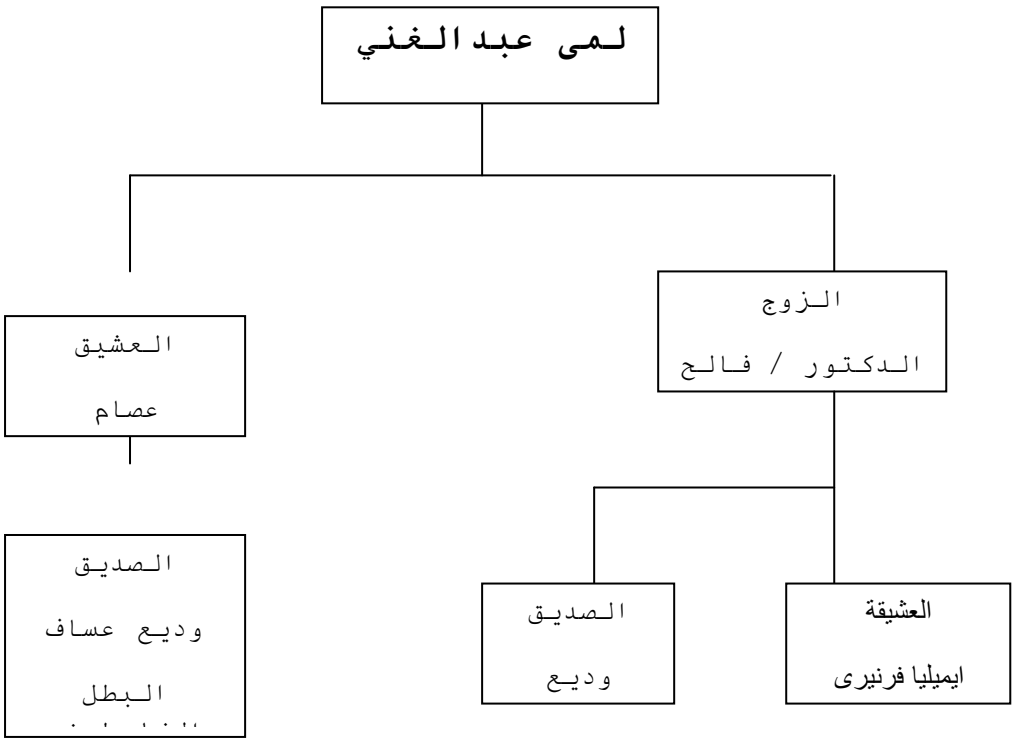

**البحث عن وليد مسعود:**

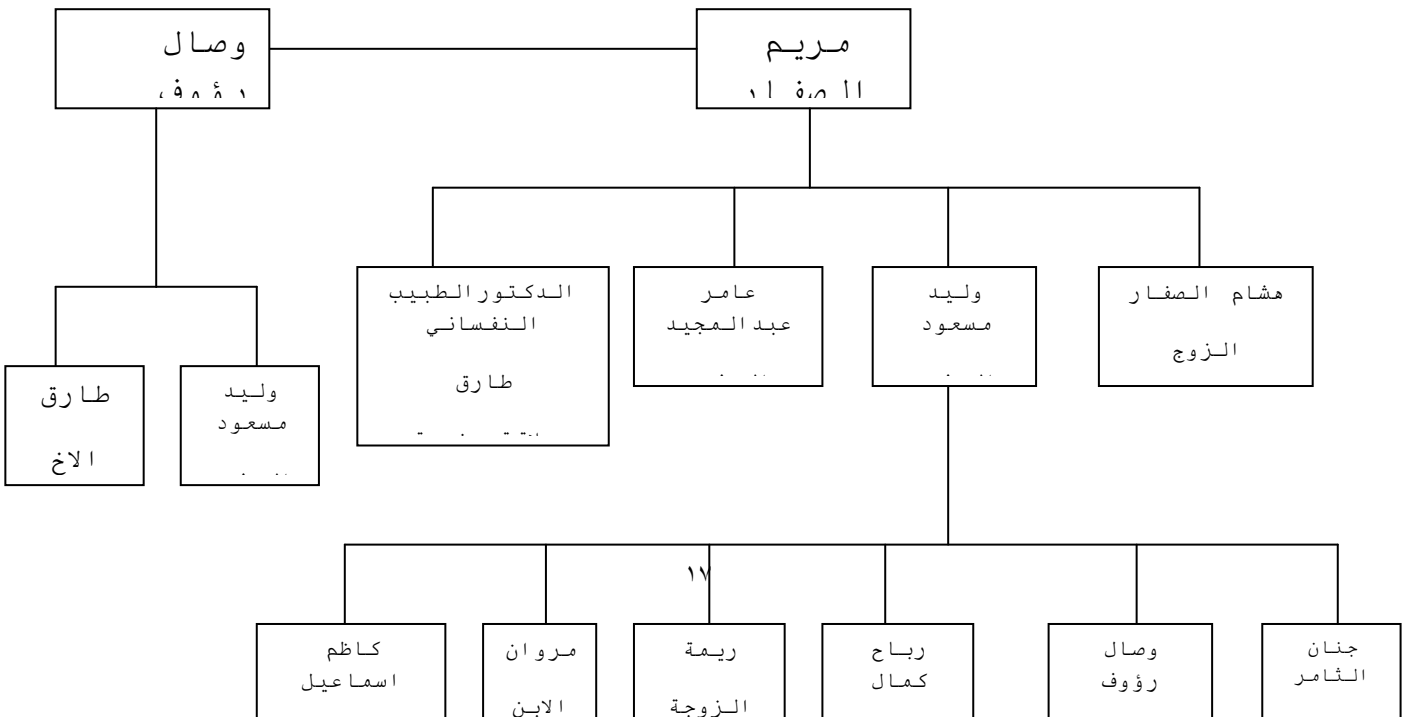

## الخاتمة

المرأة عنصر بارز من عناصر الخطاب الروائي ولشخصية المرأة حضور مميز في العمل الروائي والرواية بعامة رجل وامرأة، وفن الرواية هو فن الحوار، فن العلاقات البشرية بين الرجل والمرأة، مع الطبيعة والأشياء عبر الخيال الذي يستمد مقوماته من تجارب الحياة... وفي الرواية العربية هناك من صور المرأة المتناقضة مع واقعها وهناك من صور المرأة المستقيمة، صور الخصائص الجوهرية التي تحمل معاني حضور المرأة الإنساني وتفردها الأنثوي ، وبنية الرواية تقوم على هذا الحضور، فالمرأة ذات معطيات جمالية واجتماعية، لذا فهي تمد الكاتب بمادة غزيرة...

عبرت الروايات العربية في السنوات الأخيرة عن تجربة مواجهة الغرب بقيمة المغايرة وطرائق العيش والتفكير، عبرت عن التحولات الحاصلة في الساحة الاجتماعية العربية وانعكاساتها على الوعي، جاءت صورة المرأة فيها لتفصح عن توقها إلى الحرية والتحرر وفق الأنموذج الغربي أحياناً ، وفي الأحيان الأخرى نجد لها تعلقاً بروحانية غائمة السمات ، منحدرة من روح الشرق...فكانت روايات تحاول أن تضع قدماً على الضفة العربية وقدماً أخرى على الضفة الغربية...

مما تقدم يتضح أمامنا نموذج المرأة البرجوازية المثقفة الضائعة، وموقف الكاتب منه، إذ تبين مقدار ما تجسده هذه المرأة من تناقضات وما تعيشه من أزمات نفسية وعاطفية بسبب طبيعة تكوينها الاجتماعي والفكري والنفسي وهشاشة مواقفها واهتمامها بالمظهر دون الجوهر واندفاعها وراء أهوائها وميولها المتطرفة، إضافة إلى تمردها السلبي وتجاوزها للأطر الاجتماعية وللقيم الأخلاقية ولذا جاء ضياعها نتيجة حتمية ومنطقية لتصرفاتها ومواقفها غير المسؤولة وهذا ما جسدته كل من لمى عبد الغني ومريم الصفار.

لقد ((استطاع جبرا من خلال السفينة أن يدين الواقع العاجز المتمثل في طبقة مثقفيه البرجوازيين وجعل من ثقافة هذه النخبة ثقافة عاجزة لا تزال تبحر في وهمها وزيفها" وجعل من السفينة "صرخة من أجل الوعي، وعي العجز والخروج من هذا العجز.. صرخة تدين الانهزامية والاستسلام للذكريات ودعوة لتحمل المسؤولية من أجل المواجهة والتجاوز)) ( فرنجية، ٦٥)

و في نهاية المطاف يمكن تقسيم صورة المرأة عند جبرا ابراهيم جبرا في روايتي السفينة و البحث عن وليد مسعود (انموذجا) الى ما يأتي:

١- تصوير موقفها المشرف من القضية الفلسطينية و دورها في شد عزم الرجل في مواجهة الاحتلال الصهيوني الغاصب.

٢- المرأة الايجابية المتمثلة بالمرأة المثقفة التي تتحدى ظروف و متاعب الحياة والتي تبحث عن الحلول الناجعة لمواصلة عجلة الحياة و من ثم تصوير المرأة السلبية التي تبحث عن اهوائها و رغباتها الشخصية.

٣- المرأة التابعة ذات الدور الهامشي التقليدي السلبي في الرواية كونها شخصية عابرة و دورها محدود و لا تؤثر في شخصيات الرواية الرئيسة.

٤- المرأة ذات العلاقة القلقة كونها تنتمي الى طبقة اخرى عن شريكها في الرواية فتراها شخصية غير متكافأة و غير متفاهمة و غير منسجمة مع الاخر.

**المصادر:**


- أبو مطر، د. أحمد، الرواية في الأدب الفلسطيني(١٩٥٠- ١٩٧٥) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط١، ١٩٨٠.
- آلن، روجر، الرواية العربية، مقدمة تاريخية ونقدية، ترجمة: حصة منيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط١، ١٩٨٦.
- جبرا ، جبرا إبراهيم، البحث عن وليد مسعود، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، طبعة خاصة ١٩٨٩
- جبرا ، جبرا إبراهيم، السفينة، دار الآداب، بيروت ط٣، ١٩٨٣.
- حاج، سمير فوزي، مرايا جبرا ابراهيم جبرا و الفن الروائي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت ، ٢٠٠٥.
- خوري، إلياس، تجربة البحث عن أفق- مقدمة لدراسة الرواية العربية بعد الهزيمة. مركز الأبحاث في م. ت. ف. بيروت ١٩٧٤.
- الزعبي احمد، في الايقاع الروائي نحو منهج جديد في دراسة البنية الروائية، دار المناهل للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت، ١٩٩٥م .
- الشامي ، الدكتور حسن رشاد، المرأة في الرواية الفلسطينية، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ط١، ١٩٩٨م.
- عبد القادر، فاروق، من اوراق نهاية الحلم غروب شمس الحلم ، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م .
- عبدالواحد، لؤلؤة، منازل القمر ، رياض الريس للكتب و النشر، لندن، ١٩٩٠.
- فرّاج، عفيف، الحرية في أدب المرأة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ط٢، ١٩٨٠.
- فرنجية، بسام، الاغتراب في الرواية الفلسطينية. رسالة دكتوراه، جامعة جورج تاون(مخطوطة).
- الفيصل، د. سمر روحي، بناء الرواية العربية السورية(١٩٨٠- ١٩٩٠)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٥.
- قاسم، د. سيزا، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
- وادي، طه، صورة المرأة في الرواية العربية المعاصرة، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠.
- وادي، فاروق، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ط١، ١٩٨١.
- الوالي، مصطفى، الغائب المنشود، الفلسطيني في روايات جبرا إبراهيم جبرا، دار الكنوز الادبية ، بيروت ، ط١، ١٩٨٣م.
- يعقوب ، ناصر، اللغة الشعرية و تجلياتها في الرواية العربية (١٩٧٧-٢٠٠٠) ط٤، المؤسسة العربية للدراسات و النشر،٢٠٠٤م.


المصادر الالكترونية:

http://al-kemah.yoo7.com/t1222-topic ❖
http://www.alriyadh.com/Contents/29-09-2003/Mainpage/Thkafa_8055.php ❖

**Abstract**

The research aims to portray the role of women at the novelist Jabra Ibrahim Jabra and go into the details of the female characters and its role in guiding all the events and relations with the characters of the novel negatively and positively and view the complexity of time, place, and movement of time and place in two novels (the ship, searching for Walid Masoud) , and then display the contradictions, psychological crises, to return to self, home, escape, exile, suicide, alienation, despair, anxiety ... and confirm the positive role of women in the support of men in permanent struggle in the realm of life and its challenges in the fateful struggle and steadfastness in the face of oppressive occupier and then analysis of the personality of the hero (from the feminist side) a demonstration plot to show its relations with the rest of the characters in the end of the article.

Keywords: the woman, Jabra Ibrahim Jabra, the sheep, search for Walid Masoud